مناظرة سيبويه والأصمعي دراسة حجاجية

An argumentative study of the literary debate between "Al'asmaei" and "Sybwyh"

الدكتور/ بن أودينة يوسف

قسم اللغة والأدب العربي -جامعة غرداية- (الجزائر)

مخبر التراث الثقافي والأدبي بالجنوب الجزائري ، جامعة غرداية.

benoudina.youcef@univ-ghardaia.dz

تاريخ الإيداع: 2020/04/30 تاريخ القبول: 2021/05/09 تاريخ النشر: 2021/09/15

الملخص:

تعد المناظرة فنا أدبيا يستحق الدراسة في العصر الحديث، فهي سبيل قويم لإبداء الرأي ومحاججة الآخر مباشرة دون قذف أو تعنيف أو إنكار للرأي المخالف، فمن خلال المناظرة يُوظِّف كلُّ مناظِر ما عنده من حجج في المسألة محل التناظر، ومن تكون له الغلبة في الرأي يسلِّم له الطرف الآخر.

وتعد مناظرة سيبويه والأصمعي -استثناء- من المناظرات التي أدّى الجمهور فيها دورا حاسما في مآلها، حيث وقف الجمهور مع الأصمعي لأنه كان أفصح من سيبويه، فانخدع الجمهور بهذه الفصاحة دون أن يدرك موضوع المناظرة على حقيقته؛ وقد زاد الأصمعي من أسلوب المغالطة الذي أوعز له الجمهور به؛ فاستغل صوته الجهور ليؤثر من جديد على الجمهور فكان له ما أراد.

وسنقوم في دراستنا لهذه المناظرة بإبراز الآليات الحجاجية المستعملة فيها؛ بحسب تدخل كل طرف من طرفيها في مجريات التناظر، وهو ما يسمي في اصطلاح أهل المناظرة بوظائف المتناظرين، والذي يتناوب بين السؤال والجواب، فيسمى السائل مستدلا أو مانعا، ويسمى المجيب معللا أو مدعيا، ثم يتبادل المتناظران الأدوار وهكذا إلى أن ينقطع أحد طرفيها، وهي علامة انتهاء المناظرة.

الكلمات المفتاحية: المناظرة- الحجاج- سيبويه- الأصمعي-الجمهور.

Abstract

Sibawayh and Al-Asma'i debate is considered one of the debates in which the audience played a decisive role in its outcome where the audience stood with Al-Asma'i because he was more eloquent than

Sibawayh, so the audience was deceived by this eloquence without realizing the issue of the debate over its reality. Al-Asma'i increased the style of the fallacy that the audience was instructed to do; He took advantage of his strong voice to influence the audience again, so he had what he wanted.

Debating is a literary art worth studying in the modern era. It is a straightforward way to express opinion and argue directly with the other without intimidating or denying the others ideas.Through the debate, Each arguer uses points of view and arguments relevant to the subject matter. The prominent view will then be admittedly recognised and approved by the other side

In our study of this debate, we will highlight the argumentative mechanisms being used according to each side's interference in the debate process.The debaters call this analog functions which alternates between question and answer, so the questioner is called inferred or inhibitor, and the respondent is called a reasoner or claimant.Then the two debaters exchange roles and so on until the end of the debate.

Key words: debate - A*l-Hajjaj* - Sibawayh - Al-Asma'i – audience

1.مقدمة:

مناظرة سيبويه والأصمعي من المناظرات النحوية التي لم يذع صيتها فقد تناولتها كتب التراجم والسير وكتب النحو، لكنها لم تكن بتلك الشهرة التي نالتها المناظرة الزنبورية أو مناظرة السيرافي لمتى بن يونس؛ و يرجع السبب في ذلك إلى أن الأصمعي وهو الطرف المنتصر في المناظرة كان حريصا على عدم نشرها وقد كتمها طول حياته.

وتعد مناظرة سيبويه للأصمعي من المناظرات القليلة التي حُسِمت نتيجتها لصالح الطرف الأقل حظا في علم النحو لكنه انتصر بلسانه وذكائه، وتوظيفه للظروف المحيطة بالمناظرة، والتي أدّت دورا كبيرا في نتيجتها.

وقد جرت هذه المناظرة بطلب من سيبويه الذي بلغه أن الأصمعي ينكر عليه تفسيره لبعض الشواهد ويفسرها بخلاف تفسيره، فقرر سيبويه مناظرة الأصمعي بالمسجد الجامع بالبصرة على عيون الأشهاد، وقد قبل الأصمعي هذه الدعوة إلى المناظرة، فكيف جرت أطوار هذه المناظرة؟ وما هي الحجج التي وظفها أطرافها أثناء التناظر؟ هذا ما نحاول التطرق إليه من خلال المداخلة الآتية.

2- مدخل مفاهيمي:

2-1. تعريف الحجاج:

أ. لغة:

قال ابن فارس: «الحاء والجيم أصول أربعة فالأول القصد وكل قصد حَجٌّ... ومن الباب المحجة، وهي جادة الطريق،... وممكن أن تكون الحُجَة مشتقة من هذا، لأنها تُقصد، وبها يُقصد الحق المطلوب، يقال حَاجَجْتُ فلانا فحَجَجْته، أي غلبتُه بالحجة، وكذلك الظّفرُ يكون عند الخصومة، والجمع حجج والمصدر الحجاج»[1]، فجعل ابن فارس مادة (حجج) أصولا أربعة هي: القصد، وبالكسر تطلق على السَّنة أو العام، والحجاج هو العظم المستدير فوق العين، والحَجَحَجة هي النكوص، والمحجِج العاجز[2]. وبرد الأصول الأربعة إلى بعضها تكون الحجة هي الظفر عند الخصومة، أي الفلَج بالحجة وإفحام الخصم وغلبته وتعجيزه والظهور عليه ورده إلى الطريق المستقيم، فهذا الفعل يسمى الحجاج. وذلك أن المحاجج يقصد بفعله تعجيز خصمه والظهور عليه.

وذكر ابن منظور في لسان العرب: «حَاجَجْتُه، أحَاجُه حِجَاجًا ومُحَاجَة، حتى حَاجَجْتُه، أي غلبته بالحُجَج التي أدليت بها (...) وحَاجَه مَحَاجَة وحِجَاجًا نازعه الحُجَة (...) والحُجَة الدليل والبرهان»[3]، وهو في هذا يجمع بين الحجاج والدليل والبرهان، واعتبرهم شيئا واحدا، وربما يكون ذلك من باب التجوّز، وإلا فإن الدليل أوسع من البرهان والحجة، كما أن البرهان يختلف عن الحجاج إذ البرهان عقلي، والحجاج خطابي يعتمد على اللغة. وقد نص بن منظور على أن الحجاج هو غلبة الخصم بالحجج الدامغة، وصاحب الدليل والبرهان هو المحاجج.

ب. اصطلاحا:

يقول التهانوي في كشاف اصطلاح الفنون: «الحجة مرادفة للدليل... والحجة الإلزامية هي المركبة من المقدمات المسلّمة عند الخصم المقصود منها إلزام الخصم وإسكاته وهي شائعة في الكتب. والقول بعدم إفادتها الإلزامَ لعدمِ صدقها في نفس الأمر قول بلا دليل لا يُعبأ به»[4]. من خلال قول التهانوي نجده يساوي بين الحجة والدليل ويجعلهما مترادفين، كما أنه يجعل من الحجة استدلالا؛ ينطلق من مقدمات مسلَّم بها ليصل إلى نتيجة حتمية يسميها الحجة الإلزامية. والمراد منها إسكات الخصم وإفحامه. ونرى أن التهانوي قد جمع بين الحجة والدليل والاستدلال وهي أشياء مختلفة إذ لكل من الثلاثة مفهومه الخاص، وحدّه الذي يميزه عن غيره.

وفي المعجم الفلسفي نجد تعريف الحجاج على أنه «جمع الحجج لإثبات رأي أو إبطاله، والمحاجة تقديم الحجج والإفادة منها»[5].

ويرى الحبيب أعراب أن الحجاج: «بعد جوهري في اللغة ذاتها مما ينتج عن ذلك أنه حيثما وجد خطاب العقل واللغة فإن ثمة استراتيجية معينة نعمد إليها لغويا وعقليا، إما لإقناع

أنفسنا وإما لإقناع غيرنا، وهذه الاستراتيجية هي الحجاج ذاته، وهي تستمد خصوصيتها وقيمتها من الحقل الذي

تتحقق فيه ويعطيها الشرعية، وقد يكون هذا الحقل هو الحياة اليومية للناس وقيمهم أو يكون هو الفكر والتفكير من أبسط درجاته إلى أكثرها تعقيدا وتجريدا»[6]. ويضيف أيضا «الحجاج لا ينحصر في استعمالات خطابية ظرفية، وإنما هو بُعد ملازم لكل خطاب على وجه الإطلاق»[7]. وهو تعريف واسع يربط الحجاج باللغة مهما كان استعمالها فيقترب بذلك من تعريف ديكرو (Ducrot) الذي يرى أنه ما من قول إلا وفيه حجاج[8]. لكن هذا التعريف فيه نوع من المغالاة والتعميم إذ إنه توجد خطابات لا تهدف إلى الإقناع وذلك مثل الحكايات الأسطورية وما إلى ذلك.

2-2 تعريف المناظرة:

أ. لغة

قال ابن فارس: «النون والظاء والراء أصل صحيح ترجع فروعه إلى معنى واحد وهو تأمل الشيء، (...) حي حلال ونظر: متجاوران ينظر بعضهم إلى بعض، (...) وهذا نظير هذا من هذا القياس، أي أنه إذا نُظر إليه وإلى نظيره كانا سواء»[9]. فابن فارس يرى أن النظير من الشبيه والمثيل، فإذا نظر إليهما الرائي رآهما سواء، والنظرُ من الإبصار والمقابلة كما يمكن أن يكون من قبيل التشابه في الأصول، فالشيء ونظيره يعودان إلى أصل واحد.

وجاء في كتاب مجمل اللغة: «نَظرتُ، أَنظُر. نَظَرَتِ الأرض إذا رأت العين نباتها، ونظر الدهر إلى بني فلان فأهلكهم، وحيٌّ حِلال ونظر، أي متجاورين ينظر بعضهم بعضا، وداري تنظر إلى دار فلان، ودورنا تناظر أي تقابل والنظّارة قوم ينظرون إلى الشيء، ونظير الشيء مثله، وحكى أبو عبيدة النظر والنظير بمعنى واحد، مثل الند والنديد وأنشد:

ألا هل أتى نظيري مليكه أنني أنا الليث مَعْدوا عليه وعاديا.[10]

يفهم من كلام ابن فارس أن نظر يُحمل على النظر بالبصر، وعلى التقابل في المكان.

ويعرفها الزمخشري بقوله: «وناظرته في أمر كذا إذا نظرَ ونظرْتَ كيف تأتيانه»[11]، وهنا نجد الزمخشري يشير صراحة إلى علم المناظرة والبحث لأن المناظرة هي رؤية من الجانبين فهو يقترب من المفهوم الاصطلاحي للمناظرة.

وقال ابن منظور: «المناظرة أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتُما معا كيف تأتيانه، والتناظر التراوض في الأمر، ونظيرك الذي يراوضك في الأمر وتناظره، وناظره من المناظرة، والنظير المثل، وقيل المِثْل في كل شيء، وفلان نظيرك أي مِثلك لأنه إذا نظر إليهما الناظر رآهما سواء، ويقال ناظرت فلانا أي صرت نظيرا له في المخاطبة، وإذا قلتَ نظرتُ في الأمر احتمل أن يكون تفكُّرا

فيه وتدبُّرا بالقلب. والتناظر التراوض في الأمر، ونظيرك الذي يراوضك وتناظره، والمناظرة المثل والتشبيه»[12]. من خلال تعريف ابن منظور نلاحظ أنه جمع عدة سمات للمناظرة فوصفها بأنها الأخذ والرد في الأمر من طرف متخاطبين حول أمر معين أو موضوع مختلف حوله من أجل الوصول إلى موقف وسط يشترك كلا الطرفين في إقراره. ومنه فالمناظرة تعني التحاور والتراوض في الأمر، فهي من صيغة مفاعلة، بمعنى مشاركة عدة أطراف في الشيء، وعليه فالمناظرة تعني النظر من طرفين أو أكثر، بشيء من الندية دون ضغط أو استكراه أو جمود على الرأي إذا كان رأي المناظر أقرب للصواب. والنظير المِثْل في كل شيء فهو صورة تكاد تكون مطابقة للأصل؛ فإذا نظر لهما الناظر رآهما سواء.

ب. اصطلاحا:

يقول الجرجاني: «[المناظرة] هي النظر بالبصيرة من الجانبين وفي النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب»[13]. ويظهر من خلال هذا التحديد أنّه يتوفر على بعض السمات الاصطلاحية، فالمناظرة بالنسبة إليه يراد بها النظر إلى الشيء من جانبين إظهارا للحق، والتعاون عليه بكل ما من شأنه أن يقود إلى الصواب.

بينما يرى طاش كبرى زاده أنّ المناظرة في الاصطلاح: «... تعني النظر بالبصيرة لمتباريين يستند كل واحد منهما إلى مذهب مختلف لمزيد الكشف عن الحقيقة»[14]. وهذا التعريف يشير إلى أهم عناصر المناظرة من حيث وجود المتباريين والاختلاف في الرأي ومطلب الكشف عن الحقيقة.

ويربط ابن خلدون المناظرة بالجدل حيث يقول: « وأما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة (...) فإنه لمّا كان باب المناظرة في الردّ والقبول متسعا وكيف يكون حال المستدل والمجيب وحيث يسوغ له أن يكون مستدلا وكيف يكون مخصوما منقطعا ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال»[15]. ولقد عرج من خلال هذا السياق على آداب المتناظرين وحالهما أثناء التناظر، ومآل المناظرة.

وعرفها الألمعي بقوله: «هي تردد الكلام بين شخصين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق»[16]، نري أن الألمعي أشار إلى ملمح جدير بالأخذ فهو يفرق بين المناظرة والجدل حيث ربط المناظرة برغبة كلا الطرفين في إظهار الحق ولو على يد مناظره، بعكس الجدل الذي يسعى كل طرف إلى إظهار رأيه على حساب خصمه، حتى ولو كان ما يذهب إليه غير صواب.

أما عند المحدثين فيعرفها مجدي وهبة وكامل المهندس في معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب بقولهما: «هي تبادل الكلام والآراء المتعارضة في موضوع ما، يثير الجدل، مثل

الموضوعات السياسية والأدبية، والمناظرة عند العرب نوع من المحاورات التي احتدمت بين النحاة والمناطقة والمتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل، حول مسائل عقدية وغير عقدية»[17]. والملاحظ في هذا التعريف أنه يشير إلى المجالات والموضوعات التي تصلح أكثر من غيرها للتناظر.

ويعرفها محمد الأمين الشنقيطي بقوله: «وهي [المناظرة] في الاصطلاح، المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين، يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله، وإبطال قول الآخر، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق، فكأنها بالمعنى الاصطلاحي مشاركتهما في النظر الذي هو الفكر المؤدي إلى علم، أو غلبة ظن ليَظهر الصواب»[18]. ويركز الشنقيطي من خلال هذا التعريف على النتيجة النهائية التى تؤول إليها المناظرة والمتمثلة في ظهور الصواب.

وعرفها حسن حبنكة الميداني بقوله: «هي المحاورة بين فريقين حول موضوع لكل منهما وجهة نظرٍ فيه تخالف وجهة نظر الفريق الآخر، فهو يحاول إثبات وجهة نظره وإبطال وجهة نظر خصمه، مع رغبته الصادقة بظهور الحق والاعتراف به لدى ظهوره»[19]. ولعل المميز في هذا التعريف أن المناظرة لا تنحصر في فردين بل تتعداهما إلى الجماعة.

ويقف حسين صديق على تعريف آخر -بعد رصده لمناظرات القرون الأربعة الهجرية الأولى- أسماه المفهوم العلمي للمناظرة فيقول: «إن مصطلح مناظرة كان يستخدم في تلك القرون للدلالة على نص صغير أو كبير، يعرض حوارا بين شخصين، وأحيانا أكثر. كل من الاثنين يخالف الآخر في الموضوع المطروح للمناقشة، ويتبنى فرضية تخالف فرضية الخصم، يحاول دعمها بالحجج والبراهين، وإدحاض فرضية الآخر وأدلته»[20]، وبعد عرضه لهذا التعريف المأخوذ من مناظرات القدامى نجده يورد تعريفا آخر يقرنه بالخطاب، وهو كما يظهر يحاكي فيه النظريات الحديثة في تحليل الخطاب فيقول: «المناظرة نوع من أنواع الخطاب الاحتجاجي الذي يمكن تعريفه بشكل سريع كما يلي: في هذا الخطاب يتوجه متكلم ما (أ) بالخطاب إلى مستمع (ب) بهدف تغير رأي (ب) في قضية من القضايا، وينتمي هذا الخطاب إلى البيان باعتباره فن الكلام أو فن التعبير عن الفكرة»[21].

3- تحليل مناظرة سيبويه مع الأصمعي[22]:

نعرض لهذه المناظرة لنبين دور الجمهور في حسم نتيجة المناظرة لصالح أحد طرفيها، خصوصا إذا كان جمهورا عاما غير متخصص في المسائل المتناظر حولها، كما نبين كذلك دور المناظر وفصاحته كيف تؤثر على الخصم والجمهور والحكم، إذ إن للمقام دوره في حسم نتيجة المناظرة، ففي هذه المناظرة نجد المتفوق يبين أن تفوقه يعود إلى فصاحته ورباطة جأشه، ولاستعماله أساليب المغالطة في إيهام الجمهور، وهذا برفع صوته وتجنيه على خصمه، وهو الأمر الذي يقودنا إلى القول: إن المناظرة ليست إلماما بالموضوع المتناظر حوله فحسب، بل هي تقنية تداولية تواصلية، تخاطب العقل والوجدان، لذلك لزم على المرسل أن يكون على درجة عالية من الكفاءة التواصلية.

يحكى هذه المناظرة طرفها المتفوق في الظاهر، المنهزم في أعماق نفسه، وهو الأصمعي حين سأله أبو حاتم السجستاني عن المناظرة التي جمعت بينه وبين سيبويه فقال: في آخرها نادما على صنيعه: «يا بُني فَوَ الله لقد نزل بي منه شيء وددت أني لم أتكلم في شيء من العلم»[23]، يقودنا هذا القول إلى حجة مفادها أن استعمال الأساليب المغالطية في المناظرة ليس هو الفيصل الحقيقي المُظهِر لنتيجتها اليقينية؛ حتى لو ظفر صاحبه أثناء المناظرة، فإن ظفره هذا لن يستمر طويلا؛ ويكون وبالا عليه في بقية حياته، كما وقع للأصمعي، فإن ضميره أنّبه على خِداعه لسيبويه، بتلك الطريقة وندم ندما شديدا على ذلك، حتى تمنى لو أنه لم يتكلم في هذا الموضوع بشيء، ولو أن هذا الأسلوب المغالطي من الأصمعي معروف عنه في كثير من المناظرات[24].

لقد كان مدار هذه المناظرة حول الشواهد التي أوردها سيبويه في كتابه، والتي قام الأصمعي بإنكار بعضها؛ وتفسير بعضها الآخر على خلاف تفسير سيبويه، فبلغ ذلك سيبويه، فعزم على مناظرته حول هذه الشواهد ليبين خطأ الأصمعي، وحدد سيبويه لذلك مكانا يحضره جميع الناس، وهو المسجد الجامع بالبصرة، وقد كان هذا الفعل الكلامي «لا ناظرته إلا في المسجد الجامع»[25] بمثابة دعوة من سيبويه إلى الأصمعي للمناظرة حول الشواهد التي ضمنها في كتابه، ومن يظفر في هذه المناظرة يكون صاحب الحجة في تفسير الشواهد.

فبلغ الأصمعي ما عزم عليه سيبويه، فقرر مناظرته بالمسجد الجامع؛ فصلى هناك مرة فتلقاه سيبويه، وأجلسه للمناظرة حول موضوع شواهد الكتاب.

3-1 طرفا المناظرة:

الطرف الأول: سيبويه(ت180هـ)

الطرف الثاني: الأصمعي(ت216هـ).

الحكم: الجمهور (المصلون في المسجد الجامع بالبصرة).

مكان المناظرة: المسجد الجامع بالبصرة.

زمن المناظرة: لم تحدد الكتب التي أوردت نص المناظرة، زمنا محددا للمناظرة والغالب أنها كانت قبل المناظرة الزنبورية.

2-3 موضوع المناظرة:

كانت المناظرة كما أشرنا بطلب من سيبويه، فأجابه الأصمعي لذلك؛ وهذا بصلاته في المسجد الجامع، وهنا نجد أن المتناظرين تتوفر لديهما الكفاءة التداولية، فقد عمل الأصمعي على تحقيق الفعل الكلامي الذي تلفظ به سيبويه، وهو قوله: «لا أناظره[أي الأصمعي] إلا في المسجد الجامع»[26]، فقد لزم عن هذا القول أن يكون هناك فعل التناظر وبالمسجد الجامع، ولولا نية الأصمعي السليمة وحسه التداولي، وحسن تعاونه مع المخاطب لما لبّى هذه الدعوة، والتي لم تكن دعوة رسمية من سيبويه، بل كانت عبارة عن ردة فعل عمّا بلغه من إنكار الأصمعي عليه في تفسير الشواهد، كما أن الأصمعي ليس في حاجة لهذه المناظرة بقدر احتياج سيبويه إليها، الذي يريد استجلاء الأمر من الأصمعي، ويُظهر علو كعبه، فسيبويه يسعى لمواجهة الأصمعي، فهو يريد ألا يعترض الآخر سبيل أفعاله أو كما يسميه طه عبد الرحمن إرادة دفع الاعتراض[27]، فسيبويه يريد أن يدفع اعتراضات الأصمعي.

ولما صلى الأصمعي بالمسجد الجامع ذات مرة متعمدا ملاقاة سيبويه، فلما فرغ من الصلاة تلقى سيبويه الأصمعي وأقعده في باحة المسجد؛ وفاتحه بالسؤال المحوري للمناظرة وهو: «ما الذي أنكرت من بيت كذا وبيت كذا؟ ولِمَ فسّرت على خلاف ما يجب»[28]، وهنا نلحظ أن سيبويه كان مغتاظا من إنكار الأصمعي عليه في الشواهد التي قدمها في كتابه، فكان سؤاله إنكاريا حول ما ذهب إليه الأصمعي من شرحه للأبيات؛ خلافا لما عليه الواجب حسب قول سيبويه، ونجد أن سيبويه لم يقدم حجة على ما ذهب إليه هو في شرحه، وإنما طلب من الأصمعي أن يأتي بالحجة على ما خالفه به، وقد كان من الواجب أن يقدم سيبويه حججه حول تخريجه للشواهد ليضع حدا لقول الأصمعي ويقطعه، لأن البينة على من ادّعى، فسيبويه يدعي هنا بطلان ما أنكر عليه الأصمعي.

كما نجد الأصمعي قد ردّ بنفس الطريقة التي بدأ بها سيبويه كلامه فقال: «ما فسّرت إلا على ما يجب، والذي فسرته أنت ووضعته خطأ»[29]، فقد ادّعى الأصمعي من جهته أن الحق معه؛ فيما ذهب إليه من تفسير للشواهد التي ساقاها سيبويه في كتابه، وادّعى مع ذلك أن تفسير سيبويه خطأ، وهنا نجد الأصمعي قد بادر للهجوم على خصمه بدل الدفاع عن رأيه، فلم

يرد على سؤال سيبويه، بل تبنى هو موقف الصواب، وطالب مناظره بالدليل على صحة ما يدعى.

فنجد كلا المتناظرين ينطلق من قاعدة واحدة وهي صدق دعواه التي يدعيها وبطلان دعوى مناظره، فسيبويه يرى أن تفسيره للشواهد صحيحا و الأصمعي على خطأ، والموقف نفسه بالنسبة للأصمعي، فقد نهج المتناظران النهج نفسه، ولم يسلِّم أحدهما للآخر، فكان الحوار مغلقا –بداية- وهو ما يسميه غرايس (p. Grize)عدم الالتزام الحواري، وهو عدم تعاون المتلقى مع المخاطب في إنجاح العملية التواصلية.

ثم نجد الأصمعي ومن أجل انفتاح الحوار والتعاون مع المناظر، طلب من سيبويه أن يسأله عن المواضع التي يراها خلاف الصواب، وهو يقوم بالإجابة عنها وتوضيح ما أشكل عن سيبويه، فقال وبصوت مرتفع: «تسألني وأجيب »، وقد كادت تكون هذه هي البداية الحقيقية للمناظرة لولا تدخل الجمهور لصالح الأصمعي، فالأصمعي هنا استعمل الإشاريات الشخصية «التي تمثل تعبيرا عن الذوات داخل اللغة ذاتها أي لأنها تشير إلى عناصر تنتمي إلى البعد التداولي من الظاهرة اللغوية»[30]، حيث عبر عن نفسه برفعه لصوته في مقابل أن سيبويه لا يستطيع مجاراته في ذلك، إذ إن الأصمعي كان فصيحا جهورا، وكانت بسيبويه لُكْنَّة فظن الناس أن الأصمعي قد فلج في هذه المناظرة، فانسحب سيبويه من المناظرة قبل بدايتها الحقيقية تحت تأثير الجمهور.

إن استثمار الأصمعي لحجة الضغط من طرف الجمهور على سيبويه كان هو سبب فلجه في هذه المناظرة، فلم تكن لحجة العلم هنا فائدة ترتجى للظهور في المناظرة وقطع الخصم، خاصة أمام جمهور عام في المسجد الجامع، فركز الأصمعي على استهواء الجمهور وانحيازه لصالحه، وكان هذا بفضل لسانه الفصيح وصوته الجهور، فقال يونس بن حبيب: «الحق مع سيبويه وغلب ذا [أي الأصمعي] بلسانه»[31]، وهو الأمر الذي علمه سيبويه، فانسحب من المناظرة بعد إدراكه أنه مغلوب بفعل الجمهور الذي تحيز لصالح الأصمعي، صاحب الرونق في الكلام والفصاحة والبيان.

لقد كان اختيار مكان المناظرة من اقتراح سيبويه، والذي لم يوفق على الاطلاق في ذلك، فهو يعلم أن الجامع يحضره الناس على اختلاف مشاربهم، بغرض الصلاة، أو حضور حلقات العلم، فهم غير متخصصين في الأمور الدقيقة في اللغة والنحو، وبما أنه صاحب لُكْنّة فهو لن يستطيع إفهام الجمهور غرضه حتى لو كان على صواب، فهو لم يحسن اختيار مكان المناظرة وأهمل المقام الذي له أهمية كبيرة في سير مجريات المناظرة، على عكس الأصمعي الذي استغل

الجمهور لصالحه، ومنه نستنتج أن استغلال الظروف المحيطة بالمناظرة من حكم وجمهور حجة مقاميه يمكن أن تحسم نتيجة المناظرة لصاح طرف على حساب الآخر.

كما أننا نجد سيبويه قد استعمل حجة التهديد وهي حجة لغوية تداوليه ليرد على فصاحة الأصمعي الذي تقوّى بالجمهور فقال: «إذا علمت أنت يا أصمعي ما نزل بك مني لم ألتفت إلى هؤلاء »[32]، وبهذا القول أراد سيبويه أن يؤثر على الأصمعي لعله يعود عن فعلته هاته التي لم يعتمد فيها على الأسلوب السليم في المناظرة، ونصحه ألا يعوّل على جمهور لا يدرك فحوى المناظرة، وإنما اعتمد على السياق الخارجي واستغل فصاحته ولُكنَّة سيبويه والمظهر المتهلل للأصمعي فحكم له.

ويمكن أن نستنتج من هذه المناظرة أن الحجة العلمية وحدها لا تكفي للظفر في المناظرة، بل لابد من تضافر عدة أساليب حجاجية مجتمعة أو موزعه حسب مقام المناظرة فلكل حادث حديث، من رباطة الجأش وفصاحة اللسان وسرعة البديهة والحجة العلمية، فإن هذه الشروط يكمّل بعضها بعضا ليقدر المناظر أن يحسم المناظرة لصالحه.

3-3 مآل المناظرة:

انتهت المناظرة بظفر الأصمعي الذي قطع سيبويه في مجريات المناظرة، رغم اعترافه أن الحق كان مع سيبويه في تخريج الشواهد الشعرية، لكن أسلوبه في تسيير المناظرة وفصاحته وطلاقة لسانه، بالمقابلة مع لُكْنَةِ سيبويه جعلت الجمهور يقف في صفه.

وقد انتهت المناظرة بانسحاب سيبويه الذي شعر بالهزيمة منذ بداية المناظرة، فقد أدرك سيبويه أن الجمهور قد انحاز الى الأصمعي فقال له: «إذا علمت أنت يا أصمعي ما نزل بك مني لم ألتفت إلى قول هؤلاء ونفض يده في وجهي ومضى[33]، فانسحاب سيبويه بهذه الطريقة وتحميله للأصمعي عواقب فعلته باعتماده الجمهور فيصلا في المناظرة، حزّ في نفس الأصمعي وظل يعيش طول حياته في هذا الغم حتّى أنه لم يحدث بهذه المناظرة إلا في مرضه الذي توفي بعده، رغم إصرار الكثيرين على معرفة ما دار بين الأصمعي وسيبويه، وقد كان تلامذته لا يجرؤون أن يسألوه عن هذا الموضوع، رغم أن أنفسهم تتوق لذلك، وقد عبر عن ذلك أبو حاتم السجستاني بقوله للأصمعي: «في نفسي شيء أريد أن أسألك عنه»[34]، وهو ما يوحي بتردد أبي حاتم السجستاني في سؤال الأصمعي، كما أن الأصمعي كان يتعمد عدم الخوض في هذا الموضوع، فقد قال لتلميذه أبي حاتم السجستاني: « والله لولا أني لا أرجو الحياة من مرضتي هذه ما حدثتك »[35]، فالأصمعي كان حريصا على كتم ما جرى بينه وبين سيبويه لأنه كان يعتقد اعتقادا جازما أن سيبويه كان صاحب الحق في تلك المناظرة، وأن دعوة سيبويه قد تلحقه لو تكلم بهذا الموضوع، وهو ما يعكس قوله والله قد نزل بي منه شيء وددت أني لم أتكلم في شيء

من العلم، لهذا السبب كان الأصمعي لا يريد التكلم في هذه المناظرة ويحاول أن يكتم ما جرى في ذلك المجلس احتراما لسيبويه.

خاتمة:

من خلال دراستنا لمناظرة سيبويه والأصمعي نلاحظ تدخل الطرف الثالث وهو الجمهور في حسم نتيجة هذه المناظرة؛ وهو الأمر الذي قادنا إلى نتيجة أن الجمهور له دور حاسم في المناظرات خاصة إذا كان الجمهور يفقه في موضوعها وهو خلاف ما وقع هنا، كما أن أطراف المناظرة يجب أن تمتثل لحكم الجمهور فله صفة الحكم وقوله قاطع حتى لو جانب الصواب.

كما نجد في هذه المناظرة أن ذكاء الأصمعي وفصاحته كان لهما دور كبير في حسم المناظرة؛ لذا وجب أن يتولى المناظرة الأفصح والأذكى خاصة إذا كانت بين فريقين؛ وهذا لأن الظروف المحيطة بالمناظرة تؤدّى دورا كبيرا في نتيجتها.

- قائمة المصادر والمراجع

1. إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983.
2. أحمد ابن فارس، المجمل في اللغة، دراسة وتحقيق، زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت1986 .
3. أحمد ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق وضبط، عبد السلام هارون، دار الفكر، (د.ط)، القاهرة 1979.
4. التهانوي، كشاف اصطلاح الفنون والعلوم، تح، علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط1،بيروت 1996.
5. جار الله محمود الزمخشري، أساس البلاغة، تح، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت –لينان، 1998.
6. جمال الدين محمد بن مكرم بن علي ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، (د.ط). بيروت لبنان، (د.ت).
7. الحبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، إشراف: حافظ اسماعيل علوي، عالم الكتاب الحديث، ط1، الأردن 2010.
8. حسين الصديق، المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، الشركة العالمية للنشر لونجمان، ط1، الجيزة، مصر 2000.
9. خولة طالب الابراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، ط2، الجزائر، 2006.
10. زاهر الألمعي، مناهج الجدل في القرآن، مطابع الفرزدق التجارية، ط2، القاهرة، 1400هـ .
11. الشريف الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، طبعة جديدة، بيروت 1985.
12. طاش كبرى زاده، رسالة في آداب البحث والمناظرة، تح، حايف النبهان، دار الظاهرية للنشر والتوزيع، ط1، الكويت 2012 .
13. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب،1998.
14. عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة كتاب العبر، تح، عبد الله درويش، داريعرب، ط1،دمشق، سورية، 2004.
15. عبد الرحمن الزجاجي، مجالس العلماء، تح، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ط) (د.ت)،
16. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ضوابط المعرفة، دار القلم، ط4، دمشق، (1993م/1414هـ).
17. العزاوي أبو بكر، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط1، الدرا البيضاء، المغرب، 2006.
18. مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2 ، بيروت، 1984.
19. محمد بن حسن الزبيدي الأندلسي، طبقات النحويين واللغويين، تح، محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، ط2، جمهورية مصر 1984.

20. محمد الأمين الشنقيطي، آداب البحث والمناظرة، تح، سعود بن عبد العزيز العريفي، دار علم الفوائد، جدة د.ت).

21. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج16، الطبعة الأخيرة، مراجعة وزارة المعارف العمومية، مطبوعات دار المأمون، مصر، (د.ط) (د.ت)

الهوامش

[1] أحمد ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق وضبط، عبد السلام هارون، دار الفكر، القاهرة 1979، ج2، (د.ط)، مادة (حجج)، ص.29-30

[2] ينظر، نفسه، ص.31.

[3] محمد ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت لبنان، د.ت، ج2، (د.ط)، مادة (ح.ج.ج)، ص.228

[4] التهانوي، كشاف اصطلاح الفنون والعلوم، ج1، تح، علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت 1996، ص.622.

[5] إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، المعاجم العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983، ص.67.

[6] الحبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، إشراف: حافظ اسماعيل علوي، عالم الكتاب الحديث، ط1، الأردن 2010، ص.625.

[7] نفسه، ص.625.

[8] ينظر: أبوبكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط1، الدرا البيضاء، المغرب، 2006، ص.8

[9] أحمد بن فارس: مقاييس اللغة، ج5، مادة (ن ظ ر)، ص.444.

[10] أحمد بن فارس، المجمل في اللغة، دراسة وتحقيق، زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة بيروت1986 ط2، مادة (ن.ظ.ر)، ص.873.

[11] جار الله محمود الزمخشري، أساس البلاغة، ج2، تح، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت –لبنان، 1998، مادة (ن.ظ.ر)، ص.283.

[12] محمد بن منظور، لسان العرب، ج5، مادة (ن ظ ر)، ص.217-219.

[13] الشريف الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت 1985، طبعة جديدة، ص.250.

[14] طاش كبرى زاده، رسالة في آداب البحث والمناظرة، تح، حايف النهان، دار الظاهرية للنشر والتوزيع، ط1، الكويت 2012، ص.26.

[15] عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة كتاب العبر، تح، عبد الله درويش، دار يعرب، ط1، دمشق ، سورية، 2004، ص. 392.

[16] زاهر الألمعي، مناهج الجدل في القرآن، مطابع الفرزدق التجارية، ط2، القاهرة، 1400هـ، ص.24.

[17] مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، بيروت، 1984، ص.214.

[18] محمد الأمين الشنقيطي، آداب البحث والمناظرة، ج2، تح، سعود بن عبد العزيز العريفي، دار علم الفوائد، جدة، (د.ت)، ص.139.

[19] عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ضوابط المعرفة، دار القلم، ط4، دمشق، 1993م/1414هـ، ص.371.

[20] حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، الشركة العالمية للنشر لونجمان، ط1، الجيزة، مصر 2000، ص.63.

[21] نفسه، ص.186.

[22] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج16، الطبعة الأخيرة، مراجعة وزارة المعارف العمومية، مطبوعات دار المأمون، مصر، (د.ط) (د.ت) ص.125.

[23] نفسه.

[24] ينظر مثلا: عبد الرحمن الزجاجي، مجالس العلماء، تح، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ط) (د.ت)، ص. 22.

[25] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج16،ص.125.

[26] نفسه، ص.126

[27] ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص. 243

[28] نفسه.

[29] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج16، ص.125.

[30] خولة طالب الابراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر الجزائر، ط2، 2006، ص.159.

[31] محمد بن حسن الزبيدي الأندلسي، طبقات النحويين واللغويين، تح، محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، ط2، جمهورية مصر 1984، ص.68.

[32] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج16، ص.125.

[33] نفسه، ص.125.

34 نفسه، ص.125.

35 نفسه، ص.125.